كلمة التحرير

"رؤيةُ العالَمِ" عند الإسلاميين

فتحي حسن ملكاوي

مقدمة

شـــهدت العقودُ الأخيرة من التاريخ المعاصـــر حضـــورا إعلاميا كثيفا ومتناميا للشـــأنِ الإســـلامي والحركاتِ والتنظيمات الإســـلامية. وفي الســـنوات الأخيرة لم تَعُدْ عينُ المتابع أو أُذُنُه –لأيةِ مادةٍ إعلامية مقروءة أو مســـموعة أو مرئية– تُخْطِئُ إشـــارة مباشـــرة إلى الإســـلام والإســـلاميين. وتَضَـــمَّنَتْ هذه التغطيةُ الإعلامية كلَّ صـــورِ التعبير الإيجابية والسلبية. وقد تَجَاوزَ هذا الحضورُ الإسلاميُّ مجالاتِ التغطية الإعلامية إلى الجدلِ والمفاوضات السياسية، وإلى الدراسةِ المتخصصة في مراكز البحوثِ في معظم أنحاءِ العالَمِ. لذلك لم يكنْ غريبا أنْ تصبحَ رؤيةُ العالَمِ عند الإسلاميين موضوعا للبحث والدراسة، لأغراض مختلفةٍ، أَهَمُّها: توفيرُ البيانات المناسبة لتحديد صورِ التعامل مع الإسلاميين؛ بِوَصْفِهم الهَمَّ الأكبرَ لأنظمة الحكم في البلاد الإســـلامية، وفي معظمِ بلدان العالم الأخرى، وباعتبار أنَّ رؤيةَ العالَمِ أصـــبحت نموذجا تفسيريا لفَهْمِ طبيعةِ المشكلات بين فئات الناس، كما أصبح توضيحُ المؤْتَلِفِ والمخْتلِفِ في رُؤى العالَمِ بين الناس سبيلا للتعامل مع هذه المشكلات ومحاولات تذليلها.

ثُمَّ إنَّ رؤيةَ العالَمِ أو الرؤيةَ الكونية في التفكير الإســـلامي ليســـت مجرد قضـــيةٍ نظرية ترتبط بعلم الكلام "الثيولوجيا،" وإنَّما تُعَبِّرُ عن ثلاثةِ مستويات مترابطة ومتكاملة. رؤيةُ العالَمِ أولا، تصورٌ ذهني للعوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية، فكأنَّها مجموعةٌ من الصور الثابتة والمتحركة، يراها الإنسانُ، فتَلْفِتَ انتباهَه وتَدْعُوه إلى التفكر والتأمل، بِقَصْد الفهم والإدراك. ورؤيةُ العالَمِ ثانيا، موقفٌ من العالَمِ أو حالةٌ نفســـية عند الإنســـان تســـتدعي إقامةَ علاقةٍ بهذه العوالم، علاقةِ تمكينٍ وتســـخير، وســـلامٍ وانســـجام، وإجلالٍ وتهيب، ورغبةٍ ورهبة. ورؤيةُ العالَمِ ثالثا، خِطّةٌ لتغيير العالَمِ؛ أي مجموعةٌ من الأهداف التي يسعي الإنسان من خلال تحقيقِها إلى جعلِ العالَمِ أكثرَ انسجاما وتوازنا، وليصبحَ الإنسانُ أكثرَ تمكّنا من توظيف أشياءِ العالَمِ وأَحْدَاثِه وعلاقاته وتسخيرِها لبناء حياةٍ أفضلَ للإنسان في هذا العالم، بِوَصْفِ هذه الحياة مزرعة لدنياه وأخراه.

والحديثُ عن الربط بين الإسلاميين ورؤية العالَمِ، يَفْتَرِضُ بيانا محددا يُوَضِّحُ مَنْ همُ الإسلاميون في سياق هذا الحديث؟ وما المقصودُ برؤية العالَمِ؟ وما رؤيةُ العالَمِ عند الإسلاميين؟

1. مَنْ همُ الإسلاميون؟

من الطريف أن مصـــطلح "الإســـلاميون Islamists" كان يطلق إلى عهد قريب –في الأدبيات الغربية– على المتخصصين في دراسة الإسلام والدراسات الإسلامية في الجامعات ومراكز البحوث التي وَرِثَتْ أعمالَ المستشرقين. وكانت الكتبُ والموسوعات والمجلات الدورية الفصلية والحوليات هي المنتدى الذي يتحاورُ فيه هؤلاء الباحثون المنقطعون إلى البحث والدراسة، بدوافع الاهتمام الشخصي، أو بتشجيع رسمي من الجهات التي يمكنها أن تستثمر جهودَ هؤلاء في تعزيز المطامح الاستعمارية في البلاد الإسلامية. ولا يزال هذا المعنى لمصطلح الإسلاميين يستعمل ولو على نطاق ضيق.[1] ويُطْلَبُ إلى هؤلاء الإسلاميين في الغالب أن يحللوا الأحداثَ والأخبارَ والقضايا ذات العلاقة بالإسلام والمسلمين. وقد بَرَزَ الاهتمامُ الكبير بهم في السنوات الأخيرة، في سياق الجدل حول ما سُمِّي بالإرهاب الإسلامي وبخاصة بعد أحداث أيلول 2001 في أمريكا، حتى أصبح لهم حضورٌ كبير في الصحافة والإعلام اليومي، وبخاصة في البرامج الإذاعية والتلفزيونية. ومن هؤلاء شخصياتٌ أكاديمية تتحدث عن الإسلام بمنهجية وصفية موضوعية، من أمثال جون اسبوزيتو، وإيفون حداد، وتمارى صن، وكرين ارمسترونج. ومن هؤلاء أيضا شخصياتٌ تتحدث عن الإسلام والمسلمين بمنهجية نَقْضِيَّةٍ وروحٍ عدائية، من أمثال دانيال بايبس وستيف أمرسون ومارتن كريمر وبرنارد لويس.

إلا أنَّ الاستعمالَ الأكثرَ شيوعا للمصطلح في الأدبيات المعاصرة –المحلية والعالمية– أخذ ينتقل إلى وصف فئات محددة من المسلمين. فالإسلاميون الآن هم أفرادٌ ينتمون إلى حركات وتنظيمات إسلامية حركية إصلاحية تستهدف النهوض بالمجتمعات الإسلامية، ومنهم أفرادٌ مسلمون يمارسون بعضَ مهامِّ الدعوة الإسلامية دون أن يكونوا ضمن حركات وتنظيمات، ومن هؤلاء معلمون وأئمةُ مساجد ووعاظ، يعملون بحكم المهنة، أو من قبيل العمل التطوعي، لكن يجمعهم الاهتمام بالدعوة الإسلامية والتبليغ بطرق مختلفة تشمل التعليم في المدارس والوعظ والخطابة والتدريس في المساجد، أو تأليف الكتب ونشر المقالات في الصحف والمجلات، أو إلقاء المحاضرات في الندوات والمؤتمرات وغيرها، أو يمارسون عمليات معارضة سياسية ضمن السقف الديمقراطي المتاح.

ولا يعارضُ بعضُ هؤلاء الأفراد والجماعات أنْ يوصفوا بهذا الوصف، من قبيل تمييزِهم عن سائر المسلمين الذي لا يمارسون العمل للإسلام أو الدعوة إليه في صورة أو أخرى من صور النشاط السياسي أو الوعظي أو التعليمي أو الإعلامي...وباعتبار أنَّ المصطلحَ نفسَه ليس أمرا طارئا؛ فقد سبق أن استخدمه أبو الحسن الأشعري في مطلع القرن الرابع الهجري في كتابه "مقالات الإسلاميين،" كما استعمله عبد الرحمن الكواكبي في القرن الثالث عشر الهجري في كتابه "أم القرى." لكن بعضَ المسلمين يرفضون استخدامَ هذا

[1] www.wordwebonline.com/en/islamist

المصطلح خوفا من حَصْرِ صفةِ الإسلام في فئات محددة، مع أنَّ وَصْفَ الإسلام يشملُ الجميعَ، أو خوفا من تبعات التوجهات السلبية التي تلاحق الإسلاميين من أنظمة الحكم وسياسات محاربة ما يسمّى بالإرهاب في العالم الغربي، وبخاصة وأن الإعلام الغربي يَجمعُ مع الإسلاميين تلكَ الفئات التي تمارسُ الأعمالَ المسلحة من خلال تنظيماتٍ سرية محلية أو إقليمية أو عالمية، ويطلق عليهم أوصاف "الإسلاميين الفاشيين"، والإسلاميين الظلاميين،" وغير ذلك من الأوصاف السلبية.

وكمثالٍ على هؤلاء الإسلاميين أتباعُ حركات الإخوان المسلمين في البلاد العربية، والجماعة الإسلامية في القارة الهندية، والأحزاب المماثلة في بعض البلدان الأخرى، مثل حزب العدالة والتنمية في تركيا والحزب الإسلامي PAS في ماليزيا، وما يرتبط بهذه الحركات وأمثالِها في المؤسسات الإسلامية النشطة في مواقع الجاليات المسلمة في البلدان الأوروبية والأمريكية، وغيرها. ويحلو لبعض الباحثين أنْ يُجْمِلوا ضمن هؤلاء أيَّ حركات أو أفراد يمارسون المقاومةَ المسلحة لأنظمة الحكم في بلادهم كما في الجزائر، أو للاحتلال الأجنبي كما في العراق وفلسطين.

2. مفهوم رؤية العالم

لكل فردٍ من بني البشر رؤيةٌ للعالَم، سواء أدركَ ذلك أمْ لمْ يُدرِك، فكلُّ فردٍ له افتراضاتٌ وصورٌ وتحيّزات تؤثّر على الطريقة التي يرى فيها الوجودَ والحياة. وتتصف هذه الافتراضات بقدر من الثبات والتماسك، وليس بالضرورة أن تكون صحيحة. وتشبه رؤيةُ العالم النظارات التي تؤثر على الطريقة التي يرى فيها الفردُ الأشياءَ من حوله. وتتشكل رؤيةُ العالم نتيجة التعليم والتنشئة والثقافة التي يعيشها الفرد، ويتم هذا التشكل بطريقة تدريجية بطيئة تشبه عمليةَ الامتصاص الاسموزي. وكثيرٌ من الناس لا يفكرون في الكيفية التي تتشكل فيها معتقداتُهم ولا يملكون القدرة على الدفاع عنها بطريقة عقلانية.[2] ولكن ذلك لا يعني أن رؤيةَ العالم تبقى ثابتة بصورة مطلقة رغم التغيرات العميقة التي تدخل حياة الناس على المستوى المحلي والعالمي. فالعولمة في تمثّلاتها السياسية والاقتصادية والإعلامية، أخذت –في العقدين الأخيرين– تؤثّر بالفعل في كيفية رؤية العالم عند كثير من الناس ومن ثَمَّ في طريقة فهمهم وسلوكهم.

والوظيفة الأساسية لرؤية العالم عند الفرد هي وظيفةٌ تفسيرية، فَبِها يَفْهَمُ العالَمَ ويفسِّرُ أحداثَه وظواهره، وبها يفهم لماذا يفكر ويسلك بالطريقة التي يفكر بها أو يسلكها. ورؤى العالَم المتنافسةُ كثيرا ما تتصادم

[2] http://www.christianworldview.net/

وتكون الأساسَ في ما يكون بين الأفراد وبين الأمم من اختلافات وخصومات، وقد تقتصر هذه الخصومات على مماحكات لفظية، أو تتحول إلى معارك دموية، لذلك من المهِمّ أن نعرفَ أنَّ رؤى العالَم هي سببٌ في خلافات الناس، وأنّها سيفٌ ذو حدَّيْن؛ فقد تكُونُ –مثل النظارات غير الملائمة– سببا في الغَبَش الذي يمنع من يستعملها من الرؤية الصحيحة للأمور، أو قد تكون سببا في الرؤية السليمة الواضحة.

ومن المفيد أن يستخدم الإسلاميون رؤية العالَم بوصفها وحدة تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليتمكنوا من فهم رؤى العالَم عند الآخرين. وقد يكون أكثر فائدة أيضا أن يوضحوا للآخرين رؤيتهم للعالَم بصورة تتجاوز ما يُتّهَمُون به من العمل في المساحات الرمادية!

وقد أخذ مصطلح "رؤية العالم" يحتلُّ موقعا يتزايد حجما وأهمية في لغة الخطاب المعاصر. والمعروفُ أن هذا المصطلح تطوَّر أساسا في لغة الفلسفة والدين، ولكنه انتقل إلى ميادين الأدب والنقد، ولغة السياسة والعلاقات الدولية والصحافة والإعلام. ويستطيع المرء هذه الأيام أن يكشف عن مدى شيوع استعمال مصطلح معين في اللغة المعاصرة، من البحث عنه في الشبكة العنكبوتية العالمية (الإنترنت). فعند البحث عن مصطلح "رؤية العالَم" بالعربية بكلمتيه المقرونتين معا، عن طريق أحد المحركات في الشبكة (جوجل: google مثلا) فإننا نجدُهُ في مواقعَ عديدةٍ، تقترب من الألف موقع، ولا تَزَالُ تنافسه في الاستعمال مصطلحاتٌ أخرى مثل "الرؤية الكونية"، و"الرؤية الكلية" والتصور العام، والفلسفة الشاملة، وغيرها. ولكنَّ المصطلح المقابل في اللغة الإنجليزية يَرِدُ في كلمة واحدة "worldview" ونجده في حوالي خمسة عشر مليونا من المواقع. ومما يلفت الانتباه أن مصطلح "رؤية العالَم الإسلامية" باللغة الإنجليزية "Islamic worldview" يرد في حوالي أربعة وعشرين ألف موقع، في حين أن المصطلح بالعربية "رؤية العالَم الإسلامية" يرد في أقل من عشرين موقعا فقط.

ويلزم هنا التعامل بحذر مع هذه الأرقام لأنها لا تكشف بالضرورة عن حالات تكرار الاستعمال، وإنما تكشف عن تكرار ما يصل إلى الإنترنت وينشر فيها، فالمادة التي تنشر على هذه الشبكة بالعربية لا تزال قليلة جدا بالمقارنة بما يُنْشَرُ باللغات الأخرى.

ورؤية العالَم عند "الإسلامي" هي أساسا رؤيتُه لنفسه، وعلى أساس هذه الرؤية تتحدد رؤيتُه لغيره. وهذه الرؤيةُ تتخلّلُ رؤيتَه للفرد الآخر سواء "الإسلامي" الملتزم في تنظيم آخر، أو المسلم غير الملتزم بأي تنظيم من تنظيمات الإسلاميين، فضلا عن غير المسلم، من أهل الكتاب أو من غيرهم. وتتخلل هذه الرؤيةُ رؤيتَه للمذاهب الفقهية، والمدارس الفكرية، والتنظيمات الحزبية، والمؤسسات الاجتماعية، فكلٌ منها شيءٌ آخر يراه مختلفا عنه.

وتتداخل دلالاتُ رؤيةِ العالَمِ عند الفرد مع عناصر العقيدة الدينية وما تزوده به من فهم للكون والحياة والإنسان، وما يكتسبه الفرد من المعرفة البشرية في العلوم الطبيعية والاجتماعية والسلوكية؛ فمفاهيم كروية الأرض وحركتها، وغزو الفضاء، وقضايا الفقه الجغرافي والفلكي، ومعها سائر قضايا التفاعل البشري مع أشياء الطبيعة وظواهرها، ومفاهيم النفس وأشكال سلوكها، وموضوعات الشخصية الإنسانية وأنماطها، وتعدد المجتمعات البشرية واختلاف قيمها وأعرافها...جميعُ ذلك يدخل في دائرة اهتمام رؤية العالَمِ.

وتمتد دلالةُ رؤيةِ العالَمِ بين الحدَّيْن الوصفي والمعياري؛ ذلك أنَّ الحديثَ عن رؤية العالَمِ هو حديثٌ عما يمتلكه الفرد الإنساني أو الجماعة من إدراك ووعي وفهم، وليس عن شيء آخر لا يتمثل في الإدراك الإنساني. فالذين يميزون بين رؤيةٍ معينة واقعية يمتلكُها الفردُ بالفعل، أو تمتلكها الجماعة بالفعل، وبين رؤية أخرى في صورة نظرة مثالية، إنما يتحدثون في واقع الأمر عن فهمهم الفعلي لتلك الرؤية المثالية وهي في نهاية المطاف رؤيةٌ بشرية.

وربما يعتمد الإنسان في تشكيل رؤيتِهِ على مصدر ربانيّ علويّ، كما يعتمد في إيمانه بقضية من القضايا على آية قرانية. لكن الدلالةَ الكاملةَ والمطلقة لهذه الآية شيءٌ والفهمُ البشري لها شيءٌ آخر. ويجتهد الإنسان في العادة في فهمِ مرادِ الله سبحانه من الآية بالاعتماد على سياق الآية، ومناسبة نزولها، والآيات القرآنية الأخرى ذات العلاقة بها، وما قد يكون قد ورد من أحاديث نبوية حول موضوعها، وما اجتهده المفسرون في بيان دلالة هذه الآية قديما وحديثا. وثَمَّةَ إمكانيةٌ واضحة في أنهم تفاوتوا في مدى الاقتراب من معناها، حسب القدر الذي يتفضّل اللهُ به على أيٍّ منهم. ولا شك في أن كل مفسر من هؤلاء كان يأخذ بالاعتبار التفسيرات السابقة، ويوظِّفُ كذلك خبرةَ عصره ومستجدات بيئته، وفي ضوء ذلك قد يفتح الله به عليه من المعاني ما لم يخطر على بال أحد من المفسرين من قبل. ومع كل ذلك فإن المعاني والدلالات التي يأتي بها المفسرون تبقى باستمرار فهما بشريا، ويبقى مراد الله سبحانه شيئا آخر، ومصدرا لمعانٍ ودلالات أخرى يفتح الله بها على أناس آخرين.

وقد اتجه الباحثون المسلمون المعاصرون الذين كتبوا في قضية "رؤية العالَمِ" اتجاهات مختلفة، فمنهم من غلب على اهتمامه الجانبُ السياسي، فلاحَظَ آثارَ الرؤيةِ الانقسامية للعالَمِ –إلى دار إسلامٍ ودار حرب– على توجهات بعض الفئات الإسلامية تجاه غير المسلمين،[3] ومنهم من حاول أن يدرس قضايا العولمة والنظام العالمي والإرهاب في إطار "رؤية العالَمِ" في الإسلام وأبعاده الكونية والعالمية،[4] ومنهم من حاول مقاربة التجديد

---

[3] السيد، رضوان. **الصراع على الإسلام: الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية**، بيروت: دار الكتاب العربي، 2004م.

[4] زكي، الميلاد. **نحن والعالم: من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم**، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، سلسلة كتاب الرياض رقم 128، 2005م.

الحضاري الإسلامي المعاصر من خلال الرؤية الكونية الإسلامية،[5] وهكذا. ولا أعلم إذا كان موضوع "رؤية العالَم" قد بحث من الجانب التربوي والنفسي، من حيث أثر التنشئة الأسرية والاجتماعية، وأثر المناهج التربوية النظامية، والتربية غير النظامية، والمناهج الخفية، وبرامج التربية الموازية، وغيرها من البرامج والأساليب التي تسهم في التكوين الفكري والنفسي للفرد. ولَمَّا كان المقامُ هو الحديث عن رؤية الإسلاميين للعالَم، فإن برامج التكوين والتربية الفكرية والتنظيمية في داخل الحركات الإسلامية تصبح أيضا في بؤرة الاهتمام.

3. رؤية العالم والتعليم الديني

قد يكمن السبب المباشر في ربط موضوع "رؤية العالَم" بالتعليم الديني الإسلامي في هذه الأيام وكثرة الحديث عنه في أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001م في الولايات المتحدة الأمريكية، وما تبعها من أحداث إرهابية في إسبانيا وبريطانيا وعدد من البلدان العربية والإسلامية، فهذه الأحداثُ كانت تُنسَبُ دائما إلى متطرفين مسلمين يملكون رؤية خاصة للعالَم، والافتراض هنا أن التعليم الديني هو سببُ التطرف.

وقد مارست الدول الغربية على الدول العربية والإسلامية –بناء على هذا الافتراض– ضغوطا شديدة لمراجعة مناهج التعليم الديني وتعديلها، بهدف حذفِ ما قد يكونُ سببا في توليد الكراهية للآخرين، وأساسا لثقافة العنف، وإضافةِ ما قد يكون معينا على قبول الآخرين وأساسا لثقافة السلام. وقد وجدت هذه الضغوطُ لدى بعض الدول العربية والإسلامية استجابة فورية، بينما استجابت دولٌ أخرى مع شيء من التلكؤ، ووجدت فئةٌ ثالثة من الدول في هذه الضغوط فرصة سانحة، كانت تتمناها لتبرير مزيد من الحدّ من أثر التعليم الديني، لأنَّ هذه الدول كانت تُمارس هذا الحّد على أية حال. وكانت لجانُ مراجعة المناهج في بعض الأحيان، لجانا أجنبية، قدمت في إحدى الحالات للحكومة المعنية توصياتِها بتخفيض الحصص الدراسية المخصصة للتربية الإسلامية وزيادة حصص اللغة الإنجليزية!

وقد طالت الحملةُ المكثفة على برامج التعليم والتوجيه الديني المدارسَ والجامعات الخاصة بالجاليات الإسلامية في الغرب نفسه.

ويتحدثُ أكثرُ الجدلِ –الذي يدورُ حول موضوع التعليم الديني الإسلامي– عن ظاهرة الإرهاب وقضاياها المعاصرة، ولكنَّ مواقفَ المشاركين في الجدل تختلفُ كثيرا. فمنهم من يركز اهتمامه على ظاهرة

---

[5] برغوث، عبد العزيز. **الرؤية الكونية الإسلامية والتجديد: دراسة من منظور حضاري**. كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2006.

الإرهاب نفسها، نافيا أن تكون ظاهرة إسلامية،[6] ومشيرا إلى إرهاب السلطات الحاكمة للمعارضة في مجتمعاتها، وإرهاب الدول الكبرى للدول التي تعتبرها مارقة ومقاومة لنفوذها، وحتى للدول التي تعد حليفة لتلك الدول الكبرى،[7] وإرهاب الجماعات الدينية والقومية والإيديولوجية في اليابان وإيطاليا وإسبانيا وايرلندا الشمالية والهند.. إلخ. ومنها ما يؤكد أهمية التمييز بين ما يسمى الإرهاب، والحقوق المشروعة للشعوب والجماعات المضطهدة في الدفاع عن نفسها، ومنها ما يؤكد أن الإرهاب ليس ظاهرة دينية بالضرورة، عندما يُدخِلون في مفهوم الإرهاب ممارسات العنف التي يقوم بها تجار السلاح والمخدرات و"المافيات" أو الجماعات التي تقوم على الجريمة المنظمة في كثير من بلدان العالم.

ولذلك فإن من المطلوب تحريرُ مسألة التعليم الديني عموما والتعليم الديني الإسلامي على وجه الخصوص، لفهم جذور هذه المسألة وتمثلاتها في الواقع المعاصر، بعيدا عن قضية الإرهاب وممارسات العنف، ومشاعر الكراهية، أيّا كانت أسبابها.

ولا يجوز أن ننكر أن مؤسسات التعليم الديني في بلاد المسلمين عامة، والبلاد الإسلامية غير العربية خاصة، تحتاج إلى كثير من المراجعة والتجديد والتطوير، وهو أمر طبيعي تتطلبه طبيعةُ العمل التربوي والتعليمي؛ فبعض مناهج هذا التعليم تحتوي على جرعات كبيرة من نصوص تراثية، تحتاج إلى إعادة عرض وتجديد لترتبطَ بقضايا العصر، وليدركَ الطلبةُ قيمةَ تعلُّمِها. وبعضُ هذه المناهج تخلو من علوم العصر، وفقه الواقع، ومهارات الحياة المنتجة التي يحتاج إليها المجتمع المعاصر. وبعضُ الأساليب المستخدمة في هذا التعليم، أساليب بالية تُنَفِّرُ العقلَ، وتُبَلِّدُ الإحساسَ، وتُوَلِّدَ الكسلَ الذهني، والخور النفسي، وتقتلُ العزة والكرامة. ومع ذلك يأتي اليوم من يتّهمُ هذا النوع من التعليم بأنه يولد الكراهية والعنف والإرهاب.

---

[6] تؤكد البحوث العلمية أن المناهج الإسرائيلية مثلاً، تقوم على قاعدة العداء الدائم والحرب المتواصلة والكراهية الحقيقية والرفض المطلق للتعايش مع العرب والفلسطينيين، وأن هذه الروح العدائية والعقيدة القتالية توظف المعرفة الدينية والعاطفة الدينية قبل أي شيء آخر. في مجال تحليل عينات من الكتب الدراسية الإسرائيلية ووثائق فلسفة التعليم الإسرائيلية، انظر:

سمعان، سمير؛ الحافي، عامر؛ أبو جابر، إبراهيم؛ أبو فرخ، سعيد. **العرب في مناهج التعليم الإسرائيلية**. عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 2004.

[7] في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في سبتمبر 2006، شكا بعض رؤساء الدول من جهود الولايات المتحدة في فرض هيمنتها على العالم بالقوة، وأعلن الرئيس الباكستاني برويز مشرف أن الولايات المتحدة قد هددت باكستان بتدميرها وإعادتها إلى العصر الحجري، إذا لم تتعاون معها في الحرب على أفغانستان، وفتح مطاراتها وموانئها وأجوائها لمرور القوات الأمريكية، انظر:

Usborne, David. Musharraf: US Threatened to Bomb Pakistan, *The Independent* Sept 22, 2006.

ومن الطريف ملاحظة أن الكثير من القيادات والرموز الفكرية السياسية في الحركات الإسلامية ليست نتاج التعليم الديني النظامي. فمرشدو الإخوان المسلمين في مصر السبعة ليس من بينهم من تخرج من الأزهر، وأعضاء مكتب الإرشاد الحالي الإثني عشر المعرّف بهم في موقع "إخوان أون لاين" ليس من بينهم إلا شخص واحد يحمل شهادة من الأزهر في أصول الدين واللغة العربية، في حين أن ثلاثة منهم أطباء واثنان أساتذة في الهندسة، وثلاثة أساتذة في العلوم الطبيعية، ويتوزع الباقي على تخصصات الخدمة الاجتماعية والحقوق، بينما يحمل المرشدُ الحالي شهادة في التربية الرياضية.[8] وسيكون من المفيد حصر تخصصات قيادات الحركات الإسلامية في البلدان الأخرى والوصول إلى بعض الاستنتاجات. ولكن من الواضح أن ما يسمى بالأصولية الدينية في الدائرة الإسلامية –من شخصيات وحركات وتنظيمات– لم تكن نتاجا للتعليم الديني، فأبو الأعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب ليسوا من خريجي المدارس الدينية، بل إن مبررات قيام كثير من الحركات الإسلامية الاعتراض على التعليم الديني التقليدي. ولقد كان يذكر من المفارقات في علاقة الحركات الإسلامية بالتعليم الديني أن النشاط الحركي الإسلامي لطلبة كليات الطب والهندسة والعلوم في كثير من الأحيان كان أشد ظهورا وأعمق أثرا من زملائهم في كليات الشريعة، وأن الحركة الطلابية الإسلامية في السودان كانت أضعف ما تكون في جامعة أم درمان الإسلامية! وأن ما يسمى بظاهرة الأصولية الإسلامية لم تكن –على الأقل منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن– مرتبطة ارتباطا طرديا بالتعليم الديني ومؤسساته التقليدية في المدارس أو الجامعات. ومن المعروف أيضا أن التسعة عشر رجلا الذين اتهموا بخطف الطائرات في أحداث الحادي عشر من أيلول سنة 2001 في أمريكا، بصرف النظر عن مدى صحة التهمة، لم يتخرجوا من مؤسسات التعليم الديني، ومن ثم لم يتمكن مؤلفُ كتابِ "الجنود المثاليون" أن يَنْسَبَ أسبابَ تطرفهم إلى مناهج التعليم الديني، بل تبَيَّنَ له –على العكس من ذلك– أن دراساتهم كانت في غير مجال الدين.[9]

ولذلك فإن استهداف مؤسسات التعليم الديني أو مناهج التعليم الديني بالحصار أو التطوير تحت ضغوط "الحرب على الإرهاب ومقاومة التطرف" لن يؤدي إلا إلى نتائج عكسية، وربما يطوِّرُ صورا لمقاومة هذه الضغوط وإفشالِ أثرها عن طريق الآليات المعروفة في علوم التربية بالمناهج الخفية، أو يكرس التشدد والتطرف الديني، ويفشل جهود الإصلاح والتجديد المخلصة.

---

[8] http://www.ikhwanonline.com/SectionsPage.asp?SectionID=214

[9] McDermott, Terry. Perfect Soldiers: The 9/11 Hijackers: Who They Were, Why They Did It, New York: HarperCollins. 2005.

والتعليم في بلاد المسلمين في مجمله –في مؤسسات التعليم العام وفي الجامعات– يمرّ في أزمات متعددة، ذلك أنَّ كلفَتَه أخذت تتضـــاعفُ، في حين أخذت الحكوماتُ تقلل من التزامها تجاه هذه الكلفة المتزايدة، وأخذت تتيحُ مجالاتٍ أوســـع للقطاع الخاص وللاســـتثمار التجاري، كما أتيح المجال بقصـــد أو بغير قصـــد للمؤسـسـات الأجنبية لدخول ميدان التعليم في بلاد المسـلمين، مما أحدث تشـويشـا شـديدا في فلسـفة التعليم وأهدافه، وغاب عنه البعدُ التربوي الذي يستهدفُ صياغةَ شخصية الإنسان المؤمن بربه، الواثق بنفسه والمنتمي لأمته ووطنه. والتعليمُ العام في بلاد المسـلمين لا يقل حاجة عن التعليم الديني إلى التحديث والتطوير، وتوظيف الأساليب الحديثة المتاحة.

4. رؤية العالم والانتساب للحركات الإسلامية

يتشَـرَّبُ المنتسـبون للحركات الإسـلامية عناصـرَ رؤيتهم لأنفسـهم وغيرهم بطريقة تدريجية، تتزايدُ عمقا وســعة مع الوقت، وتكون أكثر تأثيرا إذا جرى الانتســاب في مرحلة مبكرة من العمر. وتتم عملية التزود بهذه العناصـــر عن طريق تعليمات التكوين والتأطير التنظيمي، والمناهج الدراســـية التربوية والحركية التي تتدارســـها مجموعات التنظيم. وتعمل الأهداف المعلنة للحركة الإســـلامية على رســـم الحدود العامة لرؤية العالَم. فهذه الأهدافُ تحدِّدُ رؤيةَ الحركة للمجتمع الذي تهدف إلى بنائه، وطبيعة المبادئ التي تحكم علاقات الأفراد والفئات المختلفة في هذا المجتمع وعلاقة المجتمع بغيره.

إنّ مجردَ الانتســاب إلى لحركات الإســلامية، وعمقَ الصــلات "الإخوانية" الحميمة التي تبنى بين أفراد الحركة وأســرهم، وقراءات التزكية النفســية، وكتائبَ التربية الروحية، والعبادات الجماعية، تُوَلِّدُ أنســا وألفة بين الأفراد، كلُّ ذلك يجعلُ الفردَ يحرصُ على البقاء في هذه الأجواء الطهورية، بعيدا عن أية أجواء أخرى، حتى ما تتطلبه علاقات القربى والأرحام. ومع ما يبدو في هذه الأجواء من فضـائل، فإنها يمكن أن تُحْدِثَ أثرا سـلبيا في رؤية الأفراد للآخرين خارج الحركة، تجعلُهم يتجنبون الصـــلة بالمجتمع الذي يفترض أن يعملوا على إصـــلاحه، وتصبحُ واجبات العمل التنظيمي الداخلي عندهم أكثرَ جاذبيةٍ من العمل العام ونشـر الدعوة ونضـال الخصـوم والمخالفين ومحاججتهم في المجتمع المحلي. وإذا كانت هذه الصـورة تُعرَضُ في هذا السـياق بوصـفها مشـكلة من مشـكلات العمل التنظيمي، فإنه يمكن التهوين من شـأنها، بالتأكيد على أن بعض الأفراد يميلون إلى ممارسـة النشـاط الداخلي، وآخرين يميلون إلى ممارسـة النشـاط في المجال العام، وكل ميسّـر لما خُلِق له، وتصـبحُ المسـألة مسـألة إدارة حكيمة للموارد البشـرية ووضـع الفرد المناسـب في العمل المناسـب. لكن المشـكلة تظهر في ضـعف إمكانيات التكيّف مع المواقف التي تمرّ بها الحركة ومتطلبات الســـلوك والنشـــاط الدعوي في المراحل المختلفة،

ومتطلبات التوازن في شخصية الداعية، فضلا عن انعكاس هذا التفاوت في الاستعداد عند أفراد الحركة على رؤية الآخرين لهذه الحركة، من خلال النماذج التي تواجههم من أفرادها.

ويبدو أن البعدَ السلبي لرؤية العالَم التي تتكون في بعض أطر الحركات الإسلامية من خلال الانكفاء إلى الداخل، يصبح بعد فترة عبئا يستشعر بعض الأفراد ثقله على شخصياتهم.[10]

ولكن الظروف العامة في المجتمعات التي تعمل فيها هذه الحركات تكون في بعض الأحيان أكثر تأثيرا من مناهج الحركات وتوجيهاتها؛ مما يؤدي إلى تعديل في رؤية العالم لدى الأفراد، وربما إلى توليد رؤية جديدة مختلفة تماما عما تحاول الحركاتُ الإسلامية تكوينَه؛ فالتعذيبُ الجسدي والنفسي، الشديد القسوة، الذي تعرض له آلاف المعتقلين في سجون مصر الناصرية في الخمسينات والستينات، وحملات الحرب الإعلامية وما رافقها من بؤس اقتصادي واجتماعي، ومغامرات انقلابية دموية في كثير من الأقطار، وهزائم عسكرية ماحقة أمام إسرائيل... كلُّ ذلك لم يكن ليفيدَ معه التفكيرُ الإصلاحي والدعاءُ بالهداية للحكام، والدعوةُ بالكلمة الطيبة، وتطبيقاتُ مشروع الإصلاح طويل النفس: الفرد المسلم فالأسرة المسلمة، فالمجتمع المسلم، فالدولة المسلمة. ولم يكن غريبا أن تسود فكرة التقسيم الثنائي للمجتمع: إلى جاهلي وإسلامي، وتتكرّسُ أفكارُ البراء والولاء، وأن يؤدي ذلك إلى إرباك العمل التنظيمي، وصعوبة ضبط توجهات الأفراد وتجاوبهم مع البرامج الاجتماعية والسياسية للحركات. ونشأت في داخل الحركات –نتيجة لذلك– جيوبٌ تدعو إلى ممارسة التربية الطهورية من خلال العزلة بعيدا عن تأثيرات المجتمع الجاهلي، وانفصلت بعض هذه الجيوب لتؤسس جماعات العنف والعمل المسلح.

لكن بعض القيادات كانت لا تزال تؤمنُ بأنَّ رؤيَتَها للعالَم لا تتأسسُ على ردود الفعل، وإنما على أساس المبادئ الراسخة، فنشر الإخوان المسلمون في الأردن في مطلع السبعينات نشرة "هوية المجتمع،" لتأكيد الرؤية الإصلاحية للحركة بعيدا عن صور التطرف في الرؤية أو الممارسة، ونشر الإخوان المسلمون في مصر كتاب "دعاة لا قضاة" الذي قيل إن مرشد الجماعة آنذاك كان قد أرسل فصوله من داخل سجنه إلى أعضاء الجماعة في السجون الأخرى، ليحُدَّ من نزعات الغُلُوِّ والتطرف والتكفير.

ومع كل ذلك فإنه لا تزال بعض الأدبيات السائدة في برامج التربية الفكرية ونشاطات الشحن الروحي والنفسي تجعلُ من أبناء الحركة "جماعةَ المسلمين" ومن ثم فإن ولاءهم لا يكونُ إلاّ لله ولرسوله ولهذه الجماعة، أما الشعب والدولة والوطن فكلها أصنامٌ لا تستحق الولاء، والافتراض قائم في الأساس على التعارض بين التشريعات

---

[10] يشكو بعض الأفراد في جلساتهم الخاصة من مشاعرهم السلبية تجاه غير المنتسبين لحركتهم، وهي مشاعر تصل حد الكراهية، وتتم هذه الشكاوى في حالات الصفاء النفسي وجلسات التقييم الذاتي التي تكون أشبه بمواقف "الاعتراف بالذنب."

الوضعية والتشريع الرباني، ولذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعليه –ومن باب أولى– لا يكون للشرعية الدولية، أي اعتبار ديني.

5. كيف يُقَيّم الإسلاميون رؤيتَهم للعالَم؟

رؤيةُ الإسلاميين للعالَم، لا يسهل فهمُها بالاعتماد الحصري على الفهم الذي يقدمه الإسلاميون أنفسُهم عن أنفسِهم، فالإنسانُ أحيانا لا يرى نَفْسَه جيدا، وقد لا يرى إلا جزءا من الصورة الكلية، وبعض الجوانب يصعب رؤيتها وفهمها إلا إذا توافرت لها رؤيةٌ خارجية متحررة من تحيزات الذات.[11] ومع أن بعض الحركات الإسلامية تقِيمُ علاقاتٍ جيدة مع حركات وتنظيمات وأفراد من خارج صفوفها، وتتحالفُ مع هذه الجهات أحيانا في مواقف سياسية أو فكرية، فإن التكوين الفكري والنفسي لكثير من الأفراد لا يزال لا يستسيغ ذلك، وإذا قَبِلَه فإنه يَقْبَلُه سياسة لا شرعا. وربما تقتضي الحكمة أن تؤصِّلَ هذه الحركاتُ لمواقف التعاون والتحالف هذه، تأصيلا شرعيا يريحُ ضمائر الشباب في هذه الحركات، ويجعلُ من الممكن السير خطوة أكثر أهمية، وهي أن تعتمد هذه الحركات –في محاولة التخطيط الواعي لبناء عناصر رؤيتها للعالَم– على مدخلات خارجية تستفيد فيها من الطريقة التي يفهم فيها الآخرون رؤية الإسلاميين للعالَم. ومن المؤمل أن لا يثير ذلك حفيظة الإسلاميين، إذا وجدوا فيه بعض النقد؛ فالمناطق الرمادية[12] –في تفكير الإسلاميين ومواقفهم– التي أخذ كثير من الباحثين يشيرون إليها، وتستعيرها بعض القيادات من باب المناكفة السياسية، أصبحت قضية من المفيد أن يناقشها الإسلاميون فعلا، حتى يستطيع الآخرون فهمهم بصورة أفضل.[13] فمقام الحديث عن المناطق الرمادية لا يكون في جميع الحالات حكما قيميا على جهود الإسلاميين في ميادين العمل المختلفة، وإنما هي محاولات من النوع الذي يمارسه الإسلاميون أنفسهم في مراحل عملهم على المستويات المختلفة. لكنَّ النظرة الكلية في أي عملية تقويم تحتاج في الغالب أن تستهدي بمن يملك النظرة من الأعلى ومن

---

[11] من أجل ذلك كان "المؤمن مرآة أخيه". والمعنى جاء من حديث يرويه أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه. انظر:

السجستاني، أبو داود. **سنن أبي داود**. الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1999، ص 533.

[12] لماذا انفرد الإسلاميون بساحة المعارضة؟ حوار مع الدكتور عمر حمزاوي الباحث في مؤسسة كارنيجي في واشنطن، في ندوة "مركز الحوار العربي" بواشنطن. انظر **www.wfrt.net/WP/cotil/pep3.htm – 36k**

[13] يبدو أن بعض الحركات الإسلامية أخذت تحاول توضيح ما سمي بالمناطق الرمادية، ومن ذلك ما كتبه عضو مكتب الإرشاد في الإخوان المسلمين في مصر وضمنه رسالة موجهة إلى مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي يوضح فيها موقف الجماعة من النقاط الست التي وردت في تقرير المؤسسة عن الإسلاميين، وكانت الرسالة بعنوان: الإسلام الإصلاحي: إيضاح المناطق الرمادية. انظر:

– أبو الفتوح، عبد المنعم. الإسلام الإصلاحي: إيضاح المناطق الرمادية، **نشرة الإصلاح العربي**، مجلد 4، عدد 6، يوليو 2006.

الخارج، حيث يمكن أن يرى ما لا يراه من في الداخل. وعندما يدعو الإسلاميون إلى حلقات المراجعة والتقويم باحثين وخبراء من غيرهم، فإن ذلك يعدّ علامة صحة وعافية في التنظيم، ومنهجا في التربية والتكوين، وصوتا إعلاميا يدحض شبهة الانغلاق، وتعبيرا عن الثقة بالنفس، وتقديرا للمعرفة الموضوعية، وتأسيسا لجسور العلاقات الإيجابية مع الآخرين.

6. رؤية العالم عند الإسلاميين في إطارها السياسي

لا غرابةَ أنْ يسيطرَ الهَمُّ السياسي على رؤية الإسلاميين للعالَم، فرؤيةُ العالَم هي رؤيةٌ للأمة الإسلامية وعلاقتها بالآخر. ورؤيةُ الأمة ترتبط بالإمامة والخلافة، وهو موضوع لجدل عريض يمتد من رؤيته محورا للتفكير السياسي المعاصر، إلى رؤيته صفحة من التاريخ يمكن أن تطوى دون أن تخسر الأمة شيئا. ورؤيةُ الآخر ترتبط بالعلاقات الدولية وحالات الحرب والسلم، وهو موضوع يفرض نفسه على الواقع الإسلامي المعاصر ليلَ نهار. وفوق ذلك فإن السياسة المحلية في بلادنا أصبحت تتحكم في فعاليات المجتمع المعاصر كافة، فالتوجيهُ الإعلامي، والبرامجُ الثقافية، والمناهجُ التربوية، وخططُ التنمية، أكثرها قصيرة المدى، وتخدم النظم السياسية القائمة ومصالح أصحاب النفوذ فيها، أكثر مما تخدم المصالح الحقيقية للشعوب. ولذلك فإنَّ عناصرَ الرؤيةِ الكلية للإصلاح عند الإسلاميين –في كثير من الأحيان– هي ردُّ فعلٍ للواقع السياسي الداخلي والخارجي بكل ضغوطه ومؤثراته.

ولا غرابة أن تسيطر التجربة التاريخية على رؤية الإسلاميين للمجتمع الذي يطمحون إلى بنائه، ذلك أنَّ صورةَ الدولةِ الحديثة في مجتمعات المسلمين جاءت على النمط الأوروبي، حيث تتحددُ في حدودٍ سياسية يعيش ضمنها مواطنون، يلتزمون بعقد اجتماعي مدني، يتيح قدرا كبيرا من حريات الاعتقاد والسلوك والتعبير، ضمن دستور وضعي، يحفظ حق الأفراد في ممارسة التدين على المستوى الفردي في مؤسسات خاصة. وهذه الصورة الحديثة لا تنسجم مع الصورة التاريخية التي يقرأ عنها مسلمو اليوم في تراثهم، ولم تتأصل –في المقابل– تجارب معاصرة في بناء الدولة الإسلامية الحديثة التي تصلح في الذهنية الإسلامية أن تكون بديلا معاصرا عن النموذج التاريخي.

ولا غرابة أن تفتقد هذه الرؤية صورة المشروع الحضاري المتكامل الذي يتوقع أن يعمل الإسلاميون في إطاره؛ ذلك أن هذا المشروع في صيغته المعاصرة هو تصورٌ للمجتمع الذي يريد الإسلاميون بناءَه، وهو بالتأكيد مجتمعٌ معاصر تستخدم فيه موادُّ البناء المعاصرة، وأدواتُ البناء المعاصرة. والعناصر الفكرية والتصورية لهذا المشروع لا تزال أقرب إلى الصور التاريخية منها إلى صور الممكنات المعاصرة، وهي أقرب إلى الآمال والطموحات منها إلى البنى الواقعية والبرامج العملية. ورغم التأكيد على أنَّ رؤيةَ العالَم الإسلامية هي قاعدة انطلاق أي

مشروع حضاري إسلامي، فإنَّ أكثر الحديث عن رؤية العالَم يتمُّ من خلال إعادة أساسيات الفهم الإسلامي للكون والحياة والإنسان في غيبة عن السقف الحضاري والواقع المعاصر، وفي صورة يصعب تحويلها إلى برامج تتوجه إليها جهود المخلصين من الدعاة والباحثين والمفكرين، بصورة ينعكس أثرها على التقدم في بناء المشروع، وتطوير برامجه والتقدم في امتلاك خبرات أكثر نضجا.

وربما تكشف الممارسة المتزايدة لمشاركة الإسلاميين في العملية السياسية في بلدانهم عن إشكالات تتطلب مزيدا من الوضوح والتحديد في تفكير الإسلاميين ومواقفهم، ما كان لها أن تتضح بدون هذه المشاركة. فثمة تخوّفٌ قد يكون مشروعا لدى فئات عديدة في المجتمع من وصول الإسلاميين إلى السلطة؛ من ذلك تخوف الأقليات غير المسلمة على حقوقها المكتسبة، وتخوف الدول الغربية على مصالحها في الوصول إلى النفط والمواد الخام الأخرى بالأسعار الملائمة لها، والأسواق الاستهلاكية لمنتجاتها، وتخوف كثير من الناس العاديين من خنق هامش الحريات العامة في مسائل الاعتقاد والتعبير والسلوك، وتخوف قطاعات من النساء من سلبهن ما تحقق لهن من مكاسب...الخ[14]

ولا يزال بعض الإسلاميين حتى الذين يمارسون المشاركة السياسية في بلدانهم لا يَرَوْنَ –في قرارة أنفسهم، وجلساتهم الخاصة– أن الديمقراطيةَ إطارٌ سليم من الناحية الإسلامية، فهم يرون بوضوح المرجعيةَ الغربية في الدعوة إلى نشر الديمقراطية، وهم يرون بوضوح المرجعية الغربية في الأدوات والنماذج الغربية لتطبيق هذه الديمقراطية وممارستها، وهم يرون بوضوح –بعد ذلك كله– ممارسات الغرب في التنكر لما تفرزه الديمقراطية من نتائج!

خاتمة

ارتبط لفظ الإسلاميين في الإعلام الغربي مع مطلع القرن الحادي والعشرين بالعنف والإرهاب، سواء أحببنا ذلك أم كرهناه. ولا تنقص هذا الإعلام أمثلةٌ يَسْتَشْهِدُ بها على ذلك، من عمليات استخدام العنف في مناطقَ تشملُ شرقَ العالَم وغربَه، من نيويورك وواشنطن إلى إندونيسيا، مرورا بخليج عدن وشرق أفريقيا، وكشمير وباكستان وأفغانستان والشيشان ولندن ومدريد وصحراء سيناء وفلسطين ولبنان...الخ. وحتى عندما يشكك

---

[14] نشرت مؤسسة كارنيجي للسلام دراسة تتحدث على ستة مسائل ترى أن على الحركات الإسلامية أن توضح موقفها منها بصورة واضحة ومحددة وخالية من الغموض والمساحات الرمادية. وكانت هذه القضايا هي: الشريعة، والعنف، والتعددية السياسية، والحقوق المدنية، وحقوق المرأة، والأقليات. انظر: نشرة الإصلاح العربي تصدر عن مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي – ترجمة دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر http://www.alwatan.com.kw/arb

الإعلام الغربي في صحة نسبة بعض هذه الأعمال إلى "تنظيم القاعدة" بوصفه لم يَعُدْ قادرا على التخطيط لعمليات إرهابية وتنفيذها، فإنَّ هذا الإعلامَ يُقَرِّرُ أن "القاعدة" أصبحت "عقيدة للمواجهة العالمية"، و"الجهاد"، و"الحرب المقدسة" الإسلامية، وأنّ هذه الممارسات التي تنبثق عن هذه العقيدة إنما تعبر عن "رؤية للعالَم."[15] وقد دخل مصطلح "رؤية العالَم القاعدية" al-Qaeda worldview or al-Qaedaism، لغة البحث العلمي في الجامعات ومراكز البحوث.[16]

بعض الزعماء الغربيين يتحدثون بشيء من الاستغراب عن أن الإسلاميين المتطرفين يملكون رؤية للعالَم مختلفة عن رؤيةِ العالَم السائدة في الغرب، وعندما طَرَح الرئيسُ الأمريكي "بوش" سؤالَه المشهور: لماذا يكرهوننا؟ أجاب –هو نفسه– بأن الإرهابيين المسلمين، يملكون رؤية للعالَم تجعلُهم يَحْسُدون الشعبَ الأمريكي على الحرية والديمقراطية التي يتمتع بها، وأنهم يكرهون أمريكا لأنهم لا يؤمنون بالقيم الأمريكية، وأن المطلوب من هؤلاء المتطرفين أن يغيّروا رؤيتَهم للعالَم، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تَدْفعُ الملايين من الدولارات لمساعدة العالم الإسلامي على تطوير المناهج التعليمية التي تعمل على بناءِ رؤيةٍ جديدة للعالَم تَنْزَعُ روحَ الكراهية، وتُؤَسِّس للسلام والتعايش، وتقومُ على الديمقراطية. بينما يؤكد بعضُ الباحثين في قضايا الإسلام والمسلمين في الغرب، وبخاصة في قطاع الزعماء الدينيين والمبشرين أنَّ المسلمين –عامة وليس فقط الإسلاميين منهم– يمتلكون رؤية للعالَم تختلف عن رؤية المسيحيين واليهود في الغرب.

وثَمَّةَ من يرى أن الإسلاميين يصوغون رؤيتَهم للعالَم –بصفة دائمة– في شكل ردَّةَ فِعْلٍ ضِدَّ الغرب. ويبدو أنَّ ثمة افتراضا بأنَّ المسلمين لا يملكون حَقَّ امتلاكِ رؤيةٍ للعالَمِ خاصةٍ بهم. فَهَلْ كان ذلك تعبيرا عن المشاعر الاستعمارية التقليدية التي كانت تَرَى أن الشعوبَ المستعمرة لا تملكُ القدرةَ على حكمِ نَفْسِها وتدبير شؤونها، فلا بُدَّ من "انتداب" من يتولَّى "الوصاية" عليها أو "الحماية" لها، حتى تتأهَّلَ –يوما ما– للاستقلال؟!

ومن الطريف أن الرئيسَ الإيراني أحمدي نجاد أرسلَ رسالة مفتوحة للرئيس الأمريكي بوش في يونيو 2006، وعندما أجرت شبكة التلفزيون الأمريكية (سي بي أس نيوز) مقابلة معه حول مضمون الرسالة، قال:

---

[15] Murphy, Dan and La Franchi, Howard. Special Briefing: How Radical Islamists see the World, *Christian Science Monitor*, August 2, 2005.

[16] Dhanrajgir, Nikhil. From Dissociated Hegemony towards Embedded Hegemony, *Journal of Science and World Affairs*, (Utrecht University, the Netherlands) Vol 1 No.2, 2005, 123-131

إنَّه يريدُ من وراء هذه الرسالة أنْ "يفتح نافذة ليتمكنوا (القادة الأمريكيون) من "رؤيةِ العالَمِ" بطريقة مختلفة..."[17]

وفي ضوء فهمنا لمركزية الصراع بين رؤى العالَمِ يَسهُلُ أنْ نَفْهَم الدعوةَ التي أطلقها وزيرُ الدفاع الأمريكي "رامسفيلد" بأنَّ الحربَ على الإرهاب يجبُ أن تكون "حربَ أفكارٍ" في المقام الأوَّل.[18] ومن ثَمَّ فإن الصراعَ على مناطقِ النفوذ ومصادرِ الطاقة وأسواقِ المنتجات، وغير ذلك من صور التضارب في المصالح، لم تَعُدْ كافية لتفسير أزمات العالَمِ المعاصر؛ فدخلت عباراتٌ مثل "حرب الأفكار،" و"التناقض بين رؤى العالم، "و" صراع الحضارات،" لغةَ البحثِ العلمي والتغطيةِ الإعلامية لقضايا العالَمِ المعاصر.

إنَّ الأزمةَ التي تواجه عالَمَ اليوم هي بالتأكيد –وفي بعض جوانبها على الأقل– أزمةٌ في رؤيةِ العالَمِ، ونحن نلاحظ أنَّ الإسلاميين يتوزعون على أطراف هذه الأزمةِ بطريقة لا تخلو من تناقض؛ فقد تكون بعضُ مكوناتِ رؤيةِ العالَمِ كامنةٌ في برامج التربية الفكرية والتنظيمية للإسلاميين، ومِن ثَمَّ يلزمُ أنْ تأخذَ هذه البرامج حظَّها من المراجعة والتطوير؛ وقد تكون القنواتُ الإعلامية للإسلاميين بحاجة إلى تعزيز دورِها في إيصال رسالَتِهم –بصورة واضحةٍ ومحددة– إلى المعْنِيّين بأمرهم في الداخل والخارج؛ وقد تكونُ بعضُ الشخصيات غير المركزية في بنيةِ الحركةِ أعلى صوتا من الحركة نفسِها؛ وقد تكونُ الأطرُ التنظيمية للحركة غيرَ قادرةٍ على الوصول برؤية الحركةِ ومواقفِها إلى حيثُ يجبُ أنْ تَصِل؛ وقد تكونُ هذه الأطرُ مُتَخَلِّفة عن متطلبات التدافعِ والتفاعل مع البيئات السياسية المعاصرة، بطريقة فاعلةٍ ومؤثرة...

وإذا كانت مراكزُ البحثِ والدراسات في العالَمِ تَجْهَدُ في دراسة موضوعِ الإسلاميين، وتَنَوّعِ الرؤى لديهم، فإنَّ من المفيد حقا أنْ يَتَوَلّوْا –هم أنفسهم– بذلَ الجهدِ في دراسة واقعِهم ومكونات فكرهم، ورؤيةِ

---

[17] جريدة الشرق الأوسط الدولية بتاريخ 11/8/ 2006 العدد 10118.

[18] ليس سراً أن يؤكد المفكرون الغربيون على أن "الحرب على الإرهاب" يجب أن تكون أساساً حرباً أيديولوجية وحرب أفكار. بل إن عدم النجاح في الحرب الساخنة على الإرهاب التي تستخدم أقسى ما تفتق عنه عقل البشر من القدرة على التدمير المادي والبشري والنفسي، يدأ يعزى إلى فشم العسكريين والسياسيين في الحرب الفكرية، وهذا ما تحدث عنه وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد في عدد من المناسبات وقال بصورة محددة ما ترجمته: "نحن في حرب أفكار، كما نحن في حرب كونية على الإرهاب، فالأفكار مهمة ونحتاج إلى التقدم بها، ويلزم توصيل هذه الأفكار بطرق تقنع المستمعين، وفي كثير من الأحيان لا نكون أفضل المرسلين لأفكارنا" أنظر:

Gertz, Bill. U.S. lacks direction, cohesion in war of ideas, *Washington times*, Oct. 30, 2003.

ويبدو أن الفشل لا يزال يلاحق الجهود الأمريكية في هذا المجال، فقد نشرت الجريدة نفسها في عددها الصادر 27 آذار (مارس) 2006 مقاطع من خطاب رامسفيلد أمام أساتذة وطلبة كلية الحرب العسكرية، منها تأكيده أن: "أمريكا لم تنجح في الحد من الدعم الإيديولوجي للمتطرفين الذي يمارسون الإرهاب في العالم، وإذا حاول أن يضع تقديراً لمدى نجاح أمريكا في "معركة الأفكار" فإنها لا تستحق أكثر من د أو د+، وأننا لم نجد المعادلة المناسبة لمواجهة الرسالة التي يقدمها المتطرفون..."

الآخرين لهم، ورؤيَتِهم للآخرين، ويُشْرِكوا غيرَهم من الباحثين المتخصصين في هذه الدراسة؛ فتحديدُ مكوناتِ رؤيةِ العالَمِ عند الإسلاميين، ومحاولةُ بيانِها وتوضيحِها مطلبٌ مشروعٌ، عليهم أنْ يَتَوَلّوْا أمرَه، والافتراضُ الذي ينفعُهم هنا أنْ يَتَجَاوَزا مقولة: إنَّ الذي يريدُ الوضوحَ في تفكيرِنا ومواقفِنا يستطيعُ أنْ يَرَاهُ، ومَنْ لا يراهُ فإنَّه لا يُريدُ رؤيَتَه!